أزمة الهوية و انفصام الأنا في :

خطاب الهوية: سيرة فكرّية لـ - علي حرب –

دلال عبابسية

جامعة باجي مختار- عنابة

Resume

L'objectif de cet article est de découvrir un texte appartenant à un genre littéraire très spécifique. Il se rapproche de l 'autobiographie dans son aspect subjectif ,mais il l'a transgresse en s'appuyant sur un discours intellectuel et une structure contradictoire .

Dans ce contexte ,se manifeste l'écriture autobiographique chez le philosophe libanais Ali Harb notamment dans son ouvrage intitulé "Discours de l'identité " . Un texte qui s'appui sur la présence du sujet en rapport étroit avec l'autre et la société..

الملخّص:

يروم هذا البحث اكتشاف نص ينتمي إلى جنس أدبي شديد الخصوصية، يتصل بالسيرة الذاتية في جانبها الذاتي وينفصل عنها في صفته الفكرية الطاغية على الخطاب، وهي ميزة تجعله نصا قائما على بنية التناقضات والصراع النفس والعقل، الأنا والآخر، الإنسان والمفكر...

من هنا تتجلى محاولة علي حرب في الكتابة الذاتية من خلال سيرته الموسومة ب " خطاب الهوية "حيث تحضر الأنا المفكرة وقضاياها المعقدة وشموليتها التي تحصر الذات في الآخر وتحبس خصوصيتها في دائرة المجتمع حد التماهي.

توطئة :

كتب " علي حرب " في مقدمة سيرته بأنه بصدد عمل فكري لا أدبي، مركزا في ذلك على الجانب المهيمن في حياته، فهو وجود فكري، منشغل بالأزمات و الإشكاليات، (أنا) غارقة في التحليل والنقد و البحث، بل إن علاقته بهذه السيرة لم تفلت من عينه الناقدة المفككة، وقد اخترنا هذا النص للدراسة لما فيه من عمق وطرح مميز سواء على مستوى الجنس الأدبي الذي يعد إشكالا بحد ذاته، أو على مستوى النص الذي يقدم أسئلة و مواقف وقضايا لم نعدها في نصوص السيرة، ولا ننكر أنه من الصعب أن نؤسس لجنس أدبي قائم بذاته وهو (السيرة الفكرية) ولكننا نحاول مقاربة النص ، على ضوء التحليل النفسي.« ... أعترف أنّ علاقتي بها أصبحت علاقة مزدوجة ملتبسة، تتراوح بين الرّضى و التجاوز، بين المماهاة و المغايرة » [1].

هذا الازدواج الذي سيطغى على النص، من خلال علاقة الكاتب بذاته، فهو يستبعد ضمير المتكلم(أنا) ليستعين بضمير الغائب (هو) جاعلا من نفسه موضوعا للكتابة، ولا يمكن أن نعتبره نكرانا للذّات بقدر ما هو انفصال منطقي لمفكر متأثر بالتفكيكية، ودراسة العقل، ثم يفصل بين زمن كتابته للسيرة، و زمن تلك الأحداث إذ ينظر لذاته من بعيد نظرة الباحث المتفحص ، موضحا منذ البداية خصوصية هذه السيرة و أسباب كتابتها « ... فإنّ هذه السيرة لا تعد عملا أدبيا بالمعنى الحصري للكلمة و إنما هي في المقام الأول عمل فكري توصلت إليه بالحديث عن بعض تجاربي الشخصية أو رصد بعض تحولات الفكرية، إنها سيرة فكرية أكثر مما هي أدبية »[2]

وضع" علي حرب " كتابه في إطار جنس أدبي، ثمّ خصصّه و أتبعه بتصنيف يحدّد صراحة، أنه لا يكتب عن حياته الشخصية ، و ليس هدفه سرد ذكرياته و مغامراته الخاصة ، إنّه نصّا فكريا بامتياز، يحمل صفة التجربة، ويغوص في واقع عقل حائر بين أزمة الحرب، و واقع الفُرقة والاختلاف، واختلاط المفاهيم و سقوط مقومات الهوية .

خطاب الهوية، بحث عميق في تعرجات " الأنا " و صدمتها أمام تجاذف الهويات، وانفلات المقومات و الانقسامات التي سيكون لها تأثير جليا على هذه " الأنا " الحاضرة الغائبة .

1- انفصام الأنا :

«ها هو يغادر بلده من جديد ، طلبا للنجاة بنفسه »[3]

تولد الأنا، في بلد أقل ما يوصف به تعدّد الطوائف والأديان، ليكون قدرها أن تعيش بينها جميعا ، و تشهد الانقسامات و الحروب الأهلية و الاقتتال باسم الدين و الطائفية ، ربما – من أجل هذا – تقع هذه " الأنا " فريسة للانفصام، فهي تنتمي إلى طائفة معينة لكنها تنادي بأن الإنسانية هويتها، و هي وطنية لكنها تلجئ إلى الغرب لتحمي نفسها، وهي مؤمنة و جاحدة ، تقدر ذاتها، وتحتقرها .

تبدأ لحظة الكتابة، من مشهد الرحيل حيث يصبح الأمان مطلبا ملحا تحتاجه " الأنا" الخائفة، وفي لحظة مواجهة الذّات، تقر منذ البداية أن غريزتها في حب البقاء والحياة كانت أقوى من حبها للوطن، بل إنّ هذه " الأنا " لها قدرة غريبة على استشعار الخوف، أو لنقل قوة الحدس، إذ بات رحيلها يعني للكثير أن كارثة فعلية سوف تحدث «حتى أنّ بعض أصدقائه و جيرانه يشعرون بالطمأنينة لبقائه بينهم، و يعتريهم التشاؤم فيما يرونه يحزم حقائبه و يقرّر الرّحيل دون سابق إنذار، إذ الكلّ يتوقع بعد رحيله أن يحصل الانفجار و تقع الكارثة » [4]

هذا الانفصال المتكرر عن الوطن، يولد شرخا في " الأنا " التي تفقد الشعور بهويتها وتجعل البحث فيها أساسا لهذه السيرة، حيث تعود إلى طفولتها، وعائلتها وتكوينها، ليس بطريقة استرجاعية بسيطة، بقدر ما هي دراسة وبحث في أركان تدعم هويتها و انتماءها .

«فلبنان موطنه ، لبنان ذلك البلد ... المزدهر الذي مزقته الحرب وخربت عمرانه »[5]

«أما مدينته فهي بيروت (...) و مع أن الحياة فيها أصبحت لا تطاق »[6]

«فهو يعلم جيدا أن موطنه الأصلي قرية في جنوب لبنان حيث مسقط رأسه (...) ومازال يذكر كيف أن قريته تحولت إلى ساحة عامة لمجال الأفكار و صراع العقائد »[7]

« و المرء إنّما يأتي من أمكنة و أزمنة ، يحمل أثر أسمائه و رموزه » [8]

الإنسان ابن بيئته، ويبدو أن " علي حرب " في تفكيكه لأجزاء حياته، يبحث عن المؤثرات والظروف التي ساهمت في بناء " الأنا "، فللمكان سلطة و تأثير و ارتباطنا النفسي به يحدد علاقتنا بذاتنا وبالآخر، الوطن ممزق، المدينة ينعدم فيها الوجود، القرية متصارعة، ثالوث أسود تتكون داخله طفولة " الأنا " .

أما العائلة، فهي جزء من ذلك الكل المتناحر، يأتي فيها دور الأب قويا "السلطة الأبوية" مؤشرا، في سلوك هذه " الأنا " التي نشأت في عائلة متوسطة الحال، متدينة ومحافظة، ملتزمة بتلك الحدود المقدسة التي وضعت لها، وهنا تبرز أولى صور الانفصام في علاقة " الأنا " بوالدها، فهي مقهورة رغم اختلافها الجوهري معه إلا أنها تقع تحت سلطته لا شعوريا « بل هو صنيعة والده على نحو خاص (...) بالرغم من أنه أنفصل وخرج عليه منذ زمن، كان لا يشاطره الرأي والموقف في معظم الأمور . لكنه عندما يعكف على تحليل بعض تصرفاته و أرائه في العديد من المسائل كالمرأة و الجنس و الله و الدين، و الحلال و الحرام، و الحسن و القبيح، يكتشف أنه متأثر و إن على نحو لا شعوري (...) و لعل هذه هي طبيعة العلاقة بين الأب والابن : إنها علاقة مزدوجة ومتعارضة ، فهو يختلف عنه ويتماهى معه، يخرج عليه و يتأثر به، يكرهه ويحبه في آن»[(9)]

هل يمكننا هنا التحدث عن (عقدة أوديب) و إرجاع كره " الأنا " لأبيها لها ؟ ! خاصة و أن " الأم " غائبة تماما عن السيرة، وهو أمر يتكرّر في السير الفكرية خاصة، فلا ينفك (المفكر) في تغييبها عن حياته أو ذكرها في سياق ولادته، لا أكثر، و قد تناولت العديد من الدراسات هذه النقطة تحديدا و أرجعتها إلى سياقات المجتمع الشرقي الأبوي ، و الذي يقف من الأم موقفا ازدواجيا، إذ يقدسها و يضعها في هالة من الخفاء والستر و يدنسها بوضعها عورة، يخجل حتى من ذكر اسمها، بل إنّ ذكر اسمها في بعض الحالات يؤدي إلى شجارات عارمة، كما أن بعض الدراسات النفسية تعتبر أن اللاوعي الجمعي، له صورة مشوهة عن المرأة و الأم لارتباطها بالخطيئة الأولى، فهي سبب معاناة البشرية و في غياب صورة الأم في " خطاب الهوية " تقديسا أو تدنيسا «،فإن علاقة الأب و الابن ليست مثالية، بقدر ما هي حالة من انفصام " الأنا " ليست الأنا بهوية

بسيطة، إنه بنية ذات تعقيد شديد ، متنوع داخليا و متناقض، ثابت و متحول، فيه من الخفاء كما قلنا بقدر ما فيه من الظهور، و من حالات الشعور بقدر حالات اللاشعور»[10]

لا يتوقف انشطار " الأنا "، عند الوطن، و الأب، فالاسم أيضا عنوان مهم في هويتها، وهو لا يربطها بوجودها و بالعالم الخارجي فحسب، بل هو يمارس سلطة الطائفية التي تعانيها « و هذا الاسم قد رسم بدوره شخصيته ، و كان دلالة على الطائفة التي ينتمي إليها (...) فيمنحه في الغالب هوية مذهبية، مع أنه كان يحاول دائما إظهار طابعه العلمي ، و يصرّ على توكيد انتمائه إلى الهوية الأكبر : الإنسانية»[11]

الكاتب ينتمي إلى طائفة لم يذكرها، و لكنه أشار إليها، وهي الشيعة واسم (علي) من رموزها للاسم سلطة قهرية على (الأنا) إذ هو أول القيود التي توضع حولها بعد الولادة وتلازمها حتى الموت، هنا يتضاعف هذا القيد حين يربط (الأنا) بالطائفية في حين هي تتشوق إلى هوية إنسانية متحرّرة .

ويتصاعد هذا الانفصام، ليصل إلى مهنة " الأنا "، حيث تبرز الازدواجية، و التناقض، وإذا كان الوطن والأسرة و الاسم من مكونات الشخصية، فإن الوظيفة هي غطاء الشخصية الذي يعطيها الأمان الغذائي و الوضع و المكانة الاجتماعية، غير أن "علي حرب " نظر إلى مهنته نظرة ازدواجية، حالها حال ما سبقها ـــ فهي « فقد اختار مهنة التدريس أو قادته الأقدار إلى اختيار هذه المهنة الشرفية في أعين البعض، الوضعية في أعين البعض الأخر »[12]

لم يسرد الكاتب أحداث طفولته، و إنما جعل حياته محاور ، محدّدة ينطلق منها، باحثا عن إجابة حول هويته، غير أن هذه الطريقة في الكتابة جعلت (الانفصام) الذي تعانيه " الأنا " بارزا و بقوة لدرجة أنّه سيطغى على السيرة، و سنجد في كل موقف اتجاهين متضاربين، أو متناقضين، بدء من إغراق الأنا في الحديث في المجتمع وصولا إلى ذاتها .

« و الحق أنّه كلما أمعن النظر في سلوك الأفراد و الجماعات ظهر له عمق الهوة بين القول و الفعل و بين النظر و العمل، إذ كان يرى كيف تختفي وراء الأهداف النبيلة و الشعارات الجميلة تصرفات منكرة و ممارسات شائبة »[13]

يغوص" د. علي حرب " في دراسة مجتمعه، الذي يعاني انفصاما حادّا " شيزو فرينيا / Shizophrenai " ، و للإشارة هناك الكثير من المفكرين تناولوا المجتمع العربي من زاوية نفسية أمثال " جورج طرابيشي " ، و قد وضعوا الكثير من العقد ، و منها الفصام بسبب الازدواجية، وتناقض الظاهر و الباطن، و صعوبة التأقلم مع الواقع ، و العيش بين الهوامات ، فالفكر في سيرته رصد أيضا هذه الحالة و أشار لها في الكثير من المحطات مؤكدا على وجود عللا نفسية تتجاوز الفرد إلى الجماعة، خاصة في الجانب الديني، فهناك تناقضا رهيبا بين ما جاء في الشريعة و بين سلوك مدّعيها، فمت هو يفككها و ينطلق مثلا من النظافة .

« و قد نظر في مسألة بسيطة كمسألة النظافة فكان يعجب كيف أن الناس لا يحرصون بالإجمال على نظافة المدينة مع أن الحديث النبوي يقرن النظافة بالإيمان »[14] ثم موضوع التبذير :«و نظر في جانب آخر من الجوانب التي تكشف عن الانفصام بين القول و العمل ، فالكل يحفظون أقوال الشريعة بالنهي عن التبذير (...) بل الأكثرون مسرفون في إنفاقهم » [15] ثم ينظر في عباداتهم، فإذا هي مجرّد طقوس بعيدة عن المعاملات من أجل هذا وصل إلى نتيجة مهمة .« ... فوجد أن أمته تعيش ضربا من الانفصام بين الرمز و الواقع والغائب والشاهد، والعقيدة والشريعة» [16]

لا تكف " أنا المفكرة " عن نقد المجتمع وتعريته، كما فعلت في كتبها و دراساتها السابقة، فالكاتب ، مفكر عربي، خصص جهوده للبحث في الدين و المجتمع و الممنوع و الممتنع، و كثيرا ما وجه النقد و عبّر عن سلبيته ..... واهتمامهم بالظاهر وتأخرهم عن غيرهم« مشكلتنا ليست مع النظام الجديد بل هي في المقام الأول مع أنفسنا ، مشكلتنا أننا نتصرف بوضعنا غير مسؤولين عما جرى و يجري لنا، مشكلتنا أننا لم نقدم منذ عصر النهضة حتى الآن شيئا مهما للعالم على

الصعيد الحضاري لا فكرة و لا سلعة (...) لن نحضر في هذا العالم الحضور القوي الفاعل اللائق إلا إذا نجحنا في تغيير أنفسنا » [17]

تتمعن " الأنا المفكرة " في علاقة مجتمعها بالدين، فهي عاجزة عن الخروج من الثالوث الأسود الذي تكونت داخله ، و كان فيه الدين و الطائفية العنوان الأكبر، و في محاولة لفهم هذا التناقض تعود هذه " الأنا " إلى الماضي لتحاول من خلاله استجداء التاريخ لفهم الحاضر، إذ تقف عن أحد أصعب المواقف في التاريخ الإسلامي حين اختلفوا حول الحكم منذ لحظة وفاة الرسول – صلى الله عليه و سلم – «واسترجع تاريخ قومه فوجد مقابل ما كان يلاحظه لدى الغير، أنّ الديانة التوحيدية لم تمنع حصول الفرقة منذ اللحظة الأولى لغياب مؤسس الديانة وواضع الشريعة»[18].

ذلك ما جعل " الأنا " تتوصل إلى ما تعتبره حقيقة – الدين – الذي يخفي شركا ووثنية ضاربة في أعماق مجتمعه ، و لأنّ هذه " الأنا " هربت إلى الآخر، و فضلت الغربة بحثا عن الأمان، فإنها راحت تعقد مقارنات بين الأنا و الآخر، تقوم في الغالب على الشعور بالدونية « ما يزال الإحساس بالنقص تجاه الأجنبي ملحوظا: فالتفوق العسكري ، لنقل عامل القوة، يضغط على الأنا العربية إلى أسفل لترتفع كفة الأقدر، ذلك الخلل في التوازن في تقييم الذات لصالح الغير أدىّ إما إلى الهروب للاتجاه المعاكس وكره الأجنبي وإما إلى، وبالتالي إلى تمجيد الذّات والتراث»[19]

و هي في مقارناتها تحاول استحضار الروح العلمية و الموضوعية، لكن عبثا، فالذاتية لها سطوتها، خاصة أنها " الأنا المفكرة " كانت تبحث عن حلول لبناء هوية متزنة، ومجتمع حضاري، و قد ركزت على الدين، لأن الأمة كانت تعتقد أنه سبب تقدمها و مصدر عزتها ، فالإسلام هو الذي جعل من العرب، أمة لها حضارتها و خصوصيتها، والابتعاد عنه هو تغيير حالتنا اليوم و ما نحن فيه من تأخر .و في رجوعها إلى الدين ، كانت " الأنا " ، تواجه انفصاما آخر أشد تعقيدا .

2- الأنا المؤمنة / الأنا الجاحدة :

تدرك " الأنا " قوة انتماءها لقومها، ومعتقداتهم، لكنها في نفس الوقت تعلن انفصالها أولا عن التعصب و الانغلاق، وثانيا عن ملتها بوصفها ديانة و معتقدا « فهو لم يعد يمارس الطقوس والعبادات ولا يتمم الواجبات الدينية »[20]

وهي أيضا، تنتمي إلى مذهبها وتجري عليها معاملاته وأحواله، لكنها تتسم بالمرونة والانفتاح والمجاوزة المستمرة، هذا الازدواج يجعلها تقف بين الكفر و الإيمان، إذ يصعب تحديد موقف ثابت للأنا من قضية الدين فتبدو في مواقف متمردة ، و في أخرى خاضعة ، تماما مثل حالها أما سلطة (الأب)، و في رضوخها للعادات و التقاليد خاصة في علاقتها بأولادها وزوجها .

« ثم انتقل إلى مسألة أخرى : مسألة جحوده و إيمانه ، وشكة و يقينه ، و كان قد تشرب الإيمان منذ صغره (...) هكذا احتل الله حيزا خطيرا من حياته و استحوذ على فكره و هو لم يزل حدثا يافعا .غير أن قوة الإيمان لم تمنع تسرب الشكوك إلى ذهنه (...) وصار العقل عنده أول من النص ، فتعطل إيمانه و ظهرت شبهته (...) و كان يجهر بذلك أمام الملأ ، معلنا أنه أصبح على مذهب الفلاسفة و إمام له سوى العقل »[21]

لكن سرعان ما، تكتشف " الأنا " أوهامها، و تعود للتشكيك فيما تدّعيه لذاتها من عقل وفسق و قطيعة مع الغيب و العقيدة، حيث عجزت في الفصل بينها و بين ذلك الرابط الروحي القوي، فالعقل عاجز في الكثير من الأحيان، ثم هناك علاقات لا يحكمها العقل، وصلات تبنى على الأمر (الزوجة و طلابه)، وقد كانت " الأنا " تمارس سلطتها و تجنح إلى الاستبداد كلّما شعرت بتهديد لتلك السلطة سواء كزوج أو كأب، أو كأستاذ و "على حرب " إذ يكتب حول ذاته، يوجه لها تحليلا عميقا ، يدعم فكرتنا حول (الفصام) الذي تعانيه الأنا إذ أنه لا يصرح بخروجه عن الدين، و إنما يوضح حالة من التذبذب، و الضياع، الاعتراف في تفسير كل شيء و التعالي والتفلسف، حتى تصبح " الأنا " في منطقة عالية ، فإذا بها تسقط في سلطة ما نشأت و تعودت عليه، لهذا تعترف « فكم حاول بعضهم جرّه إلى الأكل من لحم ذلك الحيوان الذي حرّمت

الشريعة أكله، فلم يقدر على فعل ذلك (...) »[22]. لتبقى الهوية الدينية، معلقة، لا تعرف ثباتا، فالمفكر إنما يسرد تاريخ أفكاره والمنعرجات والتقلبات التي مرّ بها في بحثه الدءوب عن الحقيقة .

3- النرجسية : الدونيّة :

تعتبر الكتابة، فعل مواجه للموت ، فسواء أغرق الكاتب ذاته في الزّهد و النفور من الدنيا أو المجون و اللهو ، فهو موقف واحد : احتجاج على الفناء و رغبة لا شعورية في الخلود ، من هنا تتجلى " الأنا المفكرة " في سيرة " علي حرب " عاشقة للحياة ، فارة من الموت ، في مشهد هروب يعقبه الكثير من التحليل لفكرة الأمان و معاناة تلك " الأنا " من فوبيا الحرب ، و الشعور الدّائم بالخطر « إذا المأساة المتولدة عن الموت هي نوعان : مأساة القلق و الخوف على الأنا من العدم ، و مأساة الحزن المتولدة عن فقدان من نحب (...) لكن إدراك الأنا للعدم و ما يولده ذلك من قلق على البقاء و قد ولو فكرة الخلود »[23].

ربما لهذا بدأ " علي حرب " ، سيرته من لحظة هروبه من الموت ، فهو فِعل ولادة حقيقية للذّات، و انتصار للحياة على الموت « ... و من شدّة خوفه لم يعد يذكر كيف قفز إلى الزورق الذي نقله إلى الباخرة، و كيف صعد منه إلى متنها، و لم يصدّق بعد وصوله إليها وأنّه أصبح بعيدا بعض الشيء عن المدينة، أي آمنا ... »[24] .

وبعيدا عن الوطن، و فوض الاقتتال، تبدأ رحلة هذه السيرة في البحث عن الهوية، هذه الأخيرة التي تشعر الذّات بانتمائها و انخراطها في الوجود، و أيضا تشعرها بتميزها، و لأنها ترتبط بالوطن والدين و المجتمع ، فهي نتاج من كل ذلك، و مرآة عاكسة له، من هنا يأتي التناقض في " الأنا المفكرة " التي تحضر بوجهين نرجسية : تعتز بفرديتها واختلافها، كونها بالدرجة الأولى " أنا مفكرة " لها نظرتها الخاصة واختياراتها واستقلاليتها . «بيد أنّه إذ عيّن لنفسه هذه الهويات المتباينة والوجوه المختلفة كان يدرك في الوقت نفسه أنّه ينفرد بذاته من بين سائر الخلائق ، و أنه لا نظير له و لا يشبهه شيء ... فظهر له أنّه فرد في نوعه، واحد في وجوده ، واحد في ذاتيته ، و كان يزداد يقينه بذلك كلما شرع في استكشاف ملامحه الخاصة و التحري عن مميزاته الفريدة»[25].

وعلى عكس بعض السير الفكرية التي يحاول أصحابها إخفاء نرجسيتهم و عشقهم لذاتهم ، فإن " علي حرب " يُفرد صفحات لسرد صفات " الأنا "وروعتها، فهو ، وراث الوحي النبوي ، وسليل الفلاسفة ، قارئ الجمهورية و قارئ القرآن، و هو سيرة فذّة،

و ذاكرته متحف لا نظير له ، و أقاويله تأويلات لحقائق لم يعنها أحد من قبل ... و قد وصل إلى مرحلة من التصوّف، ذلك أنّ التصوّف لا يحمل معنى الحلول و نكران الذّات، بقدر ما هو تصوّرا على للإنسان بوصفه مفتاحا للوجود، وصورة عن الله، أو تجلّى له، و التصوف هو مهرب إنساني. لاحظنا أن معظم السير الفكرية تلجأ إليه في النهاية بدء من الغزالي في المنقذ من الظلال، إلى عبد الرحمان بدوي، و هشام شرابي، و لعل ميول " الأنا المفكرة " إلى الشموليّة، واحتواء العالم سببا في التجلي القوي للتصوف في فكرها .

إضافة أنه في هذه السيرة، تعويض للذات التي كانت كثيرا من أزمة الفرقة والاختلاف والطائفيّة . فالصوفية انتصار للإنسان ودحض للعصبية و التطرّف، و هي أيضا ابتعاد عن سطحية الطقوس التي كان يمارسها مجتمع " الأنا "و كانت تنفر منها لما فيها من نفاق و رياء ، لكن تلك النرجسيّة التي اجتهد علي الحرب في إبرازها وتمجيدها إلا أن شعوره بالدونية لم يكن أقل حضورا.

على عكس النرجسية التي تجلّت بوضوح ، و بلغة فيها من الجمال و المبالغة ما فيها، فإنّ الدونية لا تتأتي إلا من وراء اللّغة بين طيات اللاوعي ، انطلاقا من غربة " الأنا " ، فالهروب لا يمنح الأمان إلا في صورة مُذلة « و في الغربة يعاني المرء من الوحشة و يذوق المرارة و لربما ذاق المذلّة و الإهانة ، و هو ما خرج مرّة من بيروت إلا و أحس بأنه محاضر في وجدانه و روحه إن لم يكن في جسده»[26].

والآخر على تميزه، فهو بوابة كبيرة للمقارنة ، و إن كانت " الأنا " تعتز بهويتها في أكثر من موضع،فإن للآخر حضور مهيمن خاصة في السيرة الفكرية ، فصدمة المقارنة بين مجتمع " الأنا " و مجتمع " الآخر " دائما ما كانت سببا في ذلك الاهتزاز و التناقض بين الروحي و المادي، الذاتي و الموضوعي، و لعل أبرز تلك المقارنات وقوفه مليّا أمام فكرة الجسد، و قضية الجنس عند

الآخر، و الفرق بين نظرتنا للجسد (عورة) لابد من سترها ، و نظرتهم له/و مبالغتهم في (التعري) و هو ركز في فكرة الكشف و السّتر على جوانب مختلفة، لعلّ أبرزها فكرة مواجهة الذّات والصّدق عند الآخر، والتغطية والمواراة عند " الأنا "، ولا ننكر أن " الأنا المفكرة" عبرت عن صدمتها من مجتمع يبالغ في تغطية الجسد و حرمته في حين لا يبالي بسوءة الروح و خبث النّفس، إنّ جسد الآخر العاري لم يشكل له شهوة ، بل فكرة ، تختصر الفرق و المفارقة بين الأنا والآخر .

هكذا ، قدم " علي حرب " ذاته في صيغة ضمير الغائب ، وضعها ، موضوعا ، للدراسة والتحليل بصفتها نموذجا من مجتمع له ظروفه الخاصة و سياقاته المتقلبة ، و بين الحرب و الفتنة راحت " الأنا المفكرة " تبحث عن هويتها و رغم كلّ التحليل و الأفكار المثقلة بالأخر ، فانه في النهاية توقف عند آخر نقطة توقفت عندها أول أو أهم سيرة فكرية عربية " حي بن يقظان " (التصوف)بوصفه رحلة في الذّات ، تختصر أن العقل مهما تمادى فهو عاجز في إدراك كنه الوجود والكينونة، وإنما هو يهدينا أو يعيننا على تتبع علامات نهتدي بها لمعرفة النفس.

4- ثنائية الخوف و اللّغة في نص (خطاب الهويّة) :

يبحث نص (خطاب الهويّة) في أصعب الأسئلة، لدرجة تمزّق اللّغة و تجريحها، انطلاقا من الثنائيات الضديّة (الموت – الحياة) ، (الوطن – الغربة) ، (الحرب – الأمان) ، (الإيمان – الجحود)، (الجسد – الروح) إلى تلك الوقفات التشريحية « الكتابة عندي هي تعبير عن تمزّق أو شيزوفرينية، ترى شخصين : شخص تكبّله الأحداث الاجتماعية و الاقتصادية و شخص آخر يحلم و له واقع، و يمكن أن نعبّر عن هذه النظرة كما عبّر عنها (ماكس ويبر) على أساس أنّ الكتاب سياسيون فاشلون »[27]هذا التمزق بين رؤية (الأنا المفكرة) و واقعها، كشف عن لغة مغرقة في الخوف (الفوبيا) . « ها هو يُغادِر بلده من جديد، طلبا للنّجاة بنفسه»[28].

إنّ المسافة بين (أنا المتكلم) و ضمير الغائب (هو)، لا تحضر في النص من أجل التناول الموضوعي للسيرة الذاتية، بل هي مسافة أمان، يكشف عنها لا وعي النص بدءً بسؤاله عن الهويّة ثمّ علاقة الأنا باسمها، ودينها و انتماءها ... و كلّ النّقاط التي تناولناها سابقا، فهل (الأنا) آمنة

في غيابها، مهدّدة في حضورها؟! عليها أن تتمرّد لتعيش، أو كما عبّر عن ذلك " أدلر " في كتابه " سيكولوجيتيك : في الحياة كيف تحياها «لا ينتظر، إذن ، من فرد تتبطنه مشاعر و أحاسيس من عقد النقص و القصور قويّة أن يظهر بمظهر الشخص الخاضع الخانع، الهادئ»[29] . فبداية النص تكشف عن، كثرة المحاولة، و عدم اليأس " ها هو ـــ من جديد" إذ تختزل اللّغة، نصوصا ومواقفا كثيرة يستحضرها القارئ بمجرد قراءة تلك العبارة، بل إنّها تبدو (تأوّه) يحمل شحنه الوجع والحزن، وإشارة لغوية و نفسية توقظ الرغبة في القراءة التي ستكون كفيلة بشرح هذا المشهد .

لماذا عليه أن يُغَادِر ؟!

«و الحق أن مسألة الأمن كانت شغله الشاغل، فلقد أيقظته الحرب على هذه الحقيقة بعد أن كان غافلا عنها [...] فعلم عندئذ أنّ الحضارة غلاف يسهل تمزيقه، و أن المدينة بناء واهٍ لا يقوم على أسس متينة، و تحقق له أن الإنسان لم يفعل الشيء الكثير لتعديل سلوكه العدواني أو للحد من نزوعه إلى العنف»[30].

إنّ الخوف مأساة الإنسان و هاجسه الأكبر، و إنّما شُيّدت الحصون و المدن من الصحراء والحضارات، بحثا عن الأمان، و قيل الشعر ليؤنس وحشة الخوف، حتى الأديان السماوية دعت في أسمى رسائلها للحفاظ على النفس البشرية، و تحقيق أمانها الجسدي و الغذائي.

و ركيزة نص (الهويّة) البحث عن الأمان، والشعور بالتهديد المستمر، ليس للجسد فقط بل للعقل و الرّوح، فـــ"بيروت" مدينة الحرب المجنونة، التي يشرّع فيها كل طرف قتله للآخر بسبب ديني أو سياسي، مشهد يزعزع الذّات و يجعلها تعود إلى العصور البدائية وصور الاقتتال فتتهاوى وتتمزق صورة المدينة والحضارة.

«الحضارة ـــ غلاف يمكن تمزيقه

المدينة ـــ بناء واهٍ» [31]

إذن، الذّات عارية و ضعيفة، تحتاج مكاناً بديلاً، قد يكون الغرب، هذا الذي قدّمته (الأنا) في صورة الجسد، حيث تتكرّر في النص« الجسد الغربي ـــ مبالغة في التعري»[32] .و لا نعتقد أنّ

النص، هنا يروم المقارنة الشكلية بمظهر من مظاهر الحضارة الغربية، بل هو خبث لغوي يعرّي ظاهرة الخوف فالآخر تمرّد عن السلطة بمختلف أشكالها، وصل إلى درجة اللامبالاة لدرجة اللاوعي بالآخر أمام حريّة (الأنا) و الأهم عدم – خوفها – من المواجهة أو النقد، لكن هل التعري- ليس أيضا- خوفاً و تغطية لنقص ما.

إذا كان مبالغة التستر في مجتمع (الأنا) الذي يهرب منه نفاقاً حسب تحليلها و المبالغة في التعرّي عند الآخر (الذي يهرب إليه) ادعاء فأين الأمان ؟ ! .

إنّ الاغتراب الذي تعيشه (الأنا المفكرة) في النص لا ينتهي عند السفينة المغادرة، و لا يتحقق الأمان، إلاّ في رحلة خاصّة « و قد توقف عند هذا الحد من استرسال الخاطر و سياحة الفِكر لكي يعود إلى الاهتمام بذاته، إذ عاودته الهموم و ركبته الهواجس، و هل باستطاعته أصلاً أن يكف عن الاهتمام بذاته ؟ أليست ممارسة الفكر ضرباً من الانشغال بالذّات و الاشتغال عليها و ممارستها ؟!»[33] . فالنص يعود بنا إلى نصوص أخرى، تساءلت حول الأنا و الوجود و الخالق، ففرقت في الخوف، و اهتزت النفس، حين لم تجد أمانها في المدينة أو القانون أو التفكير، " الغزالي " في " المنقذ من الضلال" و " حي بن يقظان"، و " رسائل الغربة للتوحيدي "، كلها حاضر صداها هنا، يجنح إلى جماليّة الخوف البشري، و هروبه إلى الجانب الروحي «فازداد قناعة أنّ الطريق الصوفي هو المنهج القديم و الصّراط المستقيم (...) ولذلك فالتصّوف هو في نظره، ضرب من الوعي المضاد للذّات، بغية إعادة تربيتها و إصلاحها»[34] .

لكن يدرك القارئ لنص السيرة أنّ (الأنا) التي أشار إليها النص، تقف على عتبة محاولة الهروب مجدّداً، تمارس هروبا جماليًّا من حالة الخوف والاغتراب، هروبا نفسيا من فكر إلى فِكر، ومن حضارة إلى حضارة أخرى، تستجدى تعرية الذّات من الفرديّة و القومية و العصبية، والتغطي بالإنسانية والعالميّة لكن هيهات، إذ، كلمة واحدة في آخر الخطاب، تنسف هذه المحاولة «متذبذب بين هويته و حجبه من جهة، و بين غيريته وإضاءته من جهة أخرى»[35] .

من خلال هذه الإطلالة على النص، نستطيع القول:

-أن السيرة الفكرية هي نوع من الكتابة الذاتية التي تركز على الجانب الفكري لصاحبها، فهي سيرة أفكار ومواقف وأسئلة.

-السيرة الفكرية،هي تعرية للمجتمع ومواجهة لعيوبه و كشف لخباياه.

-علي حرب عبر في سيرته عن أكبر الأزمات، وهي الهوية خاصة في المجتمع العربي وتحديدا بعد النكسة والحروب الأهلية.

-ظهرت (الأنا) متشظية، وهو ما يعكس أزمة الهوية الحقيقية.

-رغم طابعها الفكري، فان هذه السيرة لا تخرج عن إطار الأدبية والجمالية

الهوامـــش

1) علي حرب : خطاب الهوية : سيرة فكرية ، ط2 ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، 2008 ، ص 07 .

2) المصدر نفسه ، ص 10 .

3) المصدر السابق ، ص 15 .

4) المصدر السابق ، ص 15 .

5) المصدر نفسه ، ص 51 .

6) المصدر نفسه ، ص 52 .

7) المصدر نفسه ، ص 52 .

8) المصدر نفسه ، ص 52 .

9) المصدر السابق ، ص 54 .

10) المصدر السابق ، ص 54 .

11) أحمد برقاوي : الأنا ، دمشق للنشر،ط2004،1 ص:34

12) علي حرب : خطاب الهوية ، ص 54 – 55 .

13) المصدر السابق ، ص 55 .

14) المصدر نفسه ، ص 22 .

15) المصدر السابق ، ص 26 .

16) المصدر نفسه ، ص 27 .

17) المصدر نفسه ، ص 67 .

18) علي حرب : الممنوع و الممتنع : نقد الذات المفكرة ، ط4 ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، المغرب ، 2005 ، ص 85 .

19) علي حرب : خطاب الهوية ، ص 97 .

20) علي زيعور : التحليل النفسي للذّات العربية : أنماطها السلوكية و الأسطورية ، ط2 ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت ، ص 93 .

21) علي حرب : خطاب الهوية ، ص 82 .

22) المصدر السابق ، ص 111 .

23) أحمد برقاوي : الأنا ، ص 95 .

24) علي حرب : خطاب الهوية ، ص 16 .

25) المصدر السابق ، ص 56 .

26) المصدر السابق ، ص 20 .

27) سعيد علوش : الرواية و الإيديولوجية ،في المغرب العربي،دار الكلمة للنشر،ط1لبنان،1981 ص 140 .

28) علي حرب : خطاب الهوية ، ص 15 .

29) جان نعوم طنوس: التحليل النفسي لحكايات الأطفال الشعبية، دار المنهل اللبناني ، ط1 ، 2005 ، بيروت ، ص : 26 .

30).

31) علي حرب : خطاب الهوية ، ص : 18 – 19 .

32) المصدر السابق، ص : 165 .

33) الصدر نفسه، ص : 171 .

34) المصدر نفسه، ص : 175 .

35) المصدر نفسه، ص : 175 .